الصوت والريشة

د. البندري بنت خالد السديري
جامعة الدمام

للشاعر إحساس مرهف يستطيع من خلاله أن يصور مالا يراه، ويبلغ من جمال تصويره أن المتلقي يرسم لوحة تشكيلية في خياله تتمازج فيها الألوان والمشاعر بشكل كبير، الشاعر والرسام كل منهما له أدواته التي يلعب بها ويصوغ بها فنه، فللشاعر الأصوات التي تعلو حينا وتخفت آخر، وترق في موقف وتفخم في آخر، وللرسام الألوان التي تتمايز فتضفي على اللوحة بعدا جماليا يدرك بالعين، فيصنع كل منهما جمالا من اختلاف أدواته، غير أن أداة الشاعر تمكنه من الوصول إلى عدد من المتلقين أكبر، لأن وسيلة تلقف المتلقي في الغالب هي السماع والحفظ، فالصوت يحفظ في القلوب والعقول معا، أما اللوحة فتبقى حبيسة مكانها، والشعراء في كل مرة يُدخلون متلقيهم إلى مراسمهم الخاصة، ليطلق هؤلاء عنان عقولهم إلى تخيل المواقف كل حسب تجربته وبيئته وطبيعته وأمانيه، ومن أجمل المراسم وأعظمها تلك التي يقول صاحبها:

عيونُ المها بينَ الرصافةِ والجسرِ
جلبنَ الهوى من حيثُ أدري ولا أدري
خليليَّ ما أحلى الهوى وأمرَّهُ
وأعلمَني بالحُلوِ منـــــــهُ وبالمُرّ!

فمن منا لا يتخيل نفسه وقد وقف على الجسر، متوسطا صاحبيه يحاورهما ويشكيهما عيون المها، مشيرا إلى تلك الأماكن التي يتحدث عنها، إن الأصوات انطلقت وأنطقت الشاعر وأدخلته إلى عالم الرقة واللطافة؛ فرقة الأصوات في ألفاظ(المها والهوى حيث) وحسن توزيع (الياءات) في البيت حتى ختم القافية به وحمى القصيدة من جهور الراء وتكراره، كل هذا ضمن بقاءها في عالم الجمال والرقة.

أن تلوين الأساليب يقرب اللوحة المتخيلة إلى اللوحة المعاينة؛ فمن خضرة وماء صاف يترقرق ويتلون بلون ما ينعكس عليه، إلى أسلوب الخبر في بيان الطبيعة، ثم الإنشاء في أسلوب النفي المُردَف بالإثبات، يكاد المتلقي أن يبتسم مشاركة للشاعر حين تعجب من نفسه(أعلمني) فكل متلق يقول: هذا أنا! وهذه ما دعا المتوكل أن يقول: أوقفوه – أي الشاعر– فأنا أخشى أن يذوب رقة و لطافة، وما ذلك إلا لأن المتوكل كان على الجسر مثلما كنا جميعا هناك.

يقول الآخر:

غِيظَ العِدا مِنْ تَساقِينا الهوَى فدعَوْا
بِأنْ نَغَصَّ، فَقالَ الدّهرُ آمينَا

لوحة فنية تشكيلية فيها أشخاص ومشاعر متداولة بين أكثر من جهة وحوار، فكأننا مع الشاعر وهو يتبادل مشاعر الحب مع محبوبته، وفي غمرة تبادلهما هذا، نرسم في مخيلتنا من يعض على شفاهه غيظا وكمدا. إنهم الحاسدون!! أجاد الشاعر في النقلة الشعورية من بداية البيت (غيظ)فلقوة المعنى جاء صوت (الظاء) المفخم المستعلي، أما كثرة الحاسدين فتكفلت بها الصيغة الصرفية غيظ حتى أنا لم نحدد من هم وكم عددهم، أما لفظة (نغّص) ففعل أمرٍ صادُه قويت فارتقت إلى جمال المعنى حتى سمع الدهر صفيرها فأمّن على تنغيص الحاسدين، لو رسمها فنان تشكيلي لركز على لغة العيون، لأن بعضها سينطق بلغة عاشق محروم وأكثر من في الصورة نظرة حاسد منتصر.

وقد تكون القصيدة مفعمة بالألوان كما تكون اللوحة، فتشع حياة أو حماسا وألوانا، يقول الشاعر:

إذا المَرءُ لَم يُدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُهُ
فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميـــــلُ
تَسيـــلُ عَلى حَدِّ الظُباتِ نُفوسُنا
وَلَيسَت عَلى غَيرِ الظُباتِ تَسيلُ

إن تصور شخص ما يلبس ملابس جميلة ألوانها براقة، ويعلوها رداء فخم جميل، واردة في عقلنا الجمعي عند تلقينا لهذا البيت، مهد له أسلوب الشرط(إذا) الذي أعطاه الأذن وأزال أسباب الكدر عن امتلاك هذا اللباس، وفي البيت الآخر تصور منظر إراقة الدماء حتى تسيل على حد السيوف أمر وارد جدا يسهل على الرسام تصويره وعلى المتلقي تصوره في لوحة فنية؛ لأن الشاعر أجاد الرسم باستعمال فعل حركي(تسيل)وجعله مضارعا ليضمن خلود الصورة، واستغنى عن الدم بذكر النفوس فكأنها تسيل مثل الدم كناية عن مفارقتها الجسد، حتى أنها لا تسيل إلا في هذا الموقف.

لا نستغرب من ذلك فتلك وسيلة إعلامية ناجعة ، فوسائل الإعلام تعتمد على رسم الموقف وتصويره للمتلقي لتضمن تغلغل الخبر في نفسه لافتة انتباهه، فلفظة(عاجل)التي يصطبغ شريطها بالأحمر وهو لون الدم، تنذرنا بحدوث الجلل فتدق القلوب، قبل أن تقرأ العيون، هذه الوسيلة ورّثها الأدباء لأجيالهم، فنحن نرى قصصا أودعت لوحات، ولوحات تحولت إلى قصص.